الأغنية عند بيرم

بقلم: محمد مكيوى

كان فى مقدمة البواعث، التى حدت إلى ظهور الزجل فى الأندلس، طموح الشعراء، فى نظم إبداع متميز، من لغة الشعب اليومية، فى إطار جديد فى الشكل والمضمون، وإضافة بعض الأوزان الموسيقية، إلى جانب وجود بحور الشعر، المتعارف عليها.

وأول من صنف القوالب الزجلية، هم سكان الأندلس، من خلال ما التقطوه من الأهازيج، والحكم والمأثورات الشعبية.

كانت بداية نظم هذا اللون الجديد، على يد «أبى بكر بن عبدالملك بن قزمان» الذى وُلد فى قرطبة عام ١٠٦٨ وتوفى عام ١١٦٠ ميلادية.

وازدهر فن الزجل فى الأندلس، ثم تطور وتصدر الآداب المنظومة، وأصبح الزجل، لوناً من الآداب المعروفة للعالم، خرجت منه، الأغنية، والحكمة، والنقد، والوصف، والهجاء، والرثاء، والتشبيب، والصور المسرحية، والقوما، والكان كان، والطباق، والحماق، وشعر لعامية.

والإسكندرية قدمت الكثير من رواد الزجل، بداية من «ابن قلاقس السكندرى» مروراً «بالنديم» حتى عصر بيرم، وتلاميذه من بعده.

والأغنية فرع هام من فروع الزجل، تحمل أسْمَى المشاعر فى شتى المجالات، تحمل لوناً من ألوان الفن الشعبى، 'كتسب العراقة من إلهام الفطرة، ورفاهة الحس، وانطلاق الروح، فلحن الراعى، وإنشاد الحادى، وإيقاع المنشد، فى

حلقة الذكر، وترنم الشحاذ، وأهازيج الحاوى، ونداء البائع، كل هذه ترانيم، تنبعث عن الأعماق، تحمل هيام الروح، وظمأ العاطفة، ولهفة النفس.

اتجه كبار الشعراء، لنظم الأغنية، من أمثال إسماعيل صبرى، والعقاد، وشوقى، الرافعى، حفنى ناصف، عثمان جلال، أحمد رامى، على محمود طه، إبراهيم ناجى، صالح جودت، طاهر أبو فاشا، عبدالفتاح مصطفى. ومن رجال الأزهر الشيخ عاشور القوصى، محمد يونس القاضى، على الغاياتى.

وعندما نعود إلى عصر الغناء الذهبى، الذى أرخ له الموسيقار كامل الخلعى، فى كتابه «الموسيقى الشرقية» نجد كوكبة من نجوم الطرب، والمسرح الغنائى عبده الحامولى، محمد عثمان، سلامة حجازى، كامل الخلعى، ألمظ، عكاشة، داود حسنى، المسلوب، إبراهيم العربى، إبراهيم فوزى، منيرة المهدية، الشيخ أبو العلا، صَفَر على، إلى أن جاء سيد درويش، فكانت نقطة الانطلاق فى المسرح وفى الغناء الفردى والجماعى.

ارتبط اسم سيد درويش، بمجموعة من المؤلفين بديع خيرى، محمد يونس القاضى، بيرم التونسى.

كان اللقاء الأول، لبيرم التونسى مع سيد درويش، فى أوبريت «شهرزاد»، وبيرم ابن الإسكندرية، الذى ولد فى حى السيالة، وذاعت شهرته، بعد قصيدته المجلس البلدى، ثم إصداره مجلة المسلة، التى كان شعارها «المسلة لا جريدة ولا مجلة» والتى صدر منها «١٣» عدداً آخرها فى مايو ١٩٢٠، ثم نفى بيرم بسبب هجومه ونقده للملك، وفى هذا الوقت، كان وهو فى المنفى، يراسل مجلة «الشباب» وأصبح يكتب أزجالها وأشعارها، وصورها الوصفية، فكانت متعة ومدرسة، وهكذا تنوعت فنون بيرم، شعراً، ونثراً، وزجلاً.

وإذا كان اختيارنا فى هذه الدراسة، «الأغنية عند بيرم» نقول إن البداية

كانت «أغانى أوبريت شهرزاد» ثم انطلاقه بعد عودته من المنفى، بعد وفاة سيد درويش بخمسة عشر عاماً، كتب فيها فى مختلف المجالات الأوبريت، الفيلم السينمائى، المقامة، الاسكتش الغنائى، الملحمة، وكانت للأغنية نصيب كبير، فى مؤلفات بيرم التونسى، بدأها مع سيد درويش، ثم فى مسرح ملك (مطربة العواطف) شارك بالألحان فى معظم أغانى بيرم: زكريا أحمد «السنباطى» ومحمود الشريف، فريد الأطرش، محمد عبدالوهاب، محمد القصبجى، أحمد صدقى، محمد فوزى، ومعظم ملحنى هذا العصر.

وكانت أغانى بيرم، إطاراً رائعاً مذهباً للوحاته الإنسانية، التى رسمها بريشته العبقرية، مصوراً فى وضوح وجلاء المجتمعات العربية، خاصة المجتمع المصرى، يعينه على ذلك إيقاع أسلوبه البديع.

ولغة بيرم الشعبية البلدية الأصيلة، تسعفه باللفظ الدقيق.

لذلك لم يك أمير الشعراء «شوقى» يلقى الأمر على عواهنه، حين قال «أنا لا أخشى على الشعر العربى طغيان أحد أو شىء، إلا بيرم، وأدبه الشعبى».

والأغنية عند بيرم دفقة وطنية، قضية، وفكر، ومحصول لفظى من واقع الحياة، كما أن بيرم خرج بالأغنية من دائرة الجمود إلى الحركة: ومنحها نبض الحياة، وكان من الرواد الأوائل فى المسرح الغنائى، وأغانى السينما، القائمة على الديالوج والإسكتش، والغناء الجماعى الذى يدخل فى باب الأوبريت، وإذا كان معظم مؤلفى الأغانى، يجمعهم إيقاع واحد، وتدور معظم أغانيهم حول الهجر، الضنا، الشجن، السهر.

فبيرم كان مختلفا فى صوره وتركيباته، وثورته الوطنية، ونظرته للمجتمع، حتى فى العاطفة، كان له رأى آخر.

ونبدأ بعرض هذا النموذج الفريد، لأغنيته من أوبريت شهرزاد «أنا المصرى».

أنا المصـــرى كـــريم العنصـــرين

بنيت المجـــد بين الأهرامـــين

جـــدودى أنشـــأوا العلم العـــجـــيب

ويجـــرى النيل فى الوادى الخـــصـــيب

لـهـم فـى الـدنـيـــــا آلاف الـسـنـيـن

ويفنى الكون وهمـــا مـــوجـــودين

أنشودة حماسية، جمع فيها بيرم، الحضارة المصرية، ووصفها من خلال محصول لفظى يملكه بيرم، الأهرام، النيل، واستمرار الحياة، وعظمة المصريين، كما نجد فى هذه الأنشودة البسيطة المعبرة، الأسلوب الشعرى الرفيع القريب جداً من الفصحى.

أيضاً فى أوبريت «شهرزاد» يضع بيرم الميكروسكوب الشعرى، حول الجندى المصرى.

فيقول فى بداية أنشودة «**أحسن جيوش**» وهى من أوبريت شهرزاد أيضاً:

أحـــسن جـــيـــوش فى الأمم جـــيـــوشنا

وقت الشـــدايد تعـــالى شـــوفنا

ســـاعـــة لما نلمح جـــيش الأعـــادى

نـهـــــجم ولا أى شـيء يـحـــــوشـنـا

ومن خلال هذا المشهد، ومن أنشودة «**أحسن جيوش**» تحس ببراعة الاستهلال عند بيرم، كما تحس بثقافته الدينية، فهو يؤكد الحديث الدينى عن الرسول عليه الصلاة والسلام، حول صلابة وقوة الجندى المصرى، والنماذج

الوطنية عند بيرم، لا حصر لها، فهو شديد الإحساس بالوطن، والاقتراب منه.

ونتوقف لنجد هذه الأغنية، التي شدت بها سيدة الغناء العربى «أم كلثوم» ووضع موسيقاها الفنان «محمد للموجى» وكانت من الأغانى الثورية، فى زحف العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ والتى يقول فيها:

صوت السلام هو اللى ساد واللى حكم

على الدخيل اللى اندحر واللى انهزم

عدونا لما اعتدى قدمنا أرواحنا فدا

واستعجبت من بأسنا كل الأمم

تلات أمم يا بورسعيد متقدمه

بدبابات وطيارات تملا السما

الأوله/ داخله البلاد مستعمره

والثانيه/ بعد الانكسار متجبره

والتالته/ على العرب متأجره

فى هذه اللوحة الوطنية المتميزة، يتلاعب بيرم بموسيقى الشعر، فهو يستعمل بحر «الرجز» كاملاً، ثم يقطعه، حسب روى الحدث، إلى جانب المحصول اللفظى الذى يملكه بيرم وحده، نجده يأخذ شكل الترصيع فى نهاية القافية انهزم، أمم، مستعمره، متجبره، مستأجره، كما أدخل فى هذه الأنشودة، فن الأرغول الأوله، الثانيه، الثالثه.

هذا هو بيرم، فى إعجازه وإبداعه الغنائى، ونماذج الأغانى الوطنية، عند بيرم كثيرة ومتنوعة، ومادمنا نريد أن ننتقل إلى لون آخر من الغناء عند بيرم،

وقبل أن ننتقل إلى بستان آخر، نتوقف قليلاً أمام هذه الأغنية الوطنية، وكانت بمناسبة إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ التى لحنها الملحن عبدالعظيم عبدالحق، وشدا بها المطرب محمد قنديل:

وِحْده ما يغلبها غلاب

تباركها وحدة أحباب

توصلنا م الباب للباب

ولا حاجز ما بين لاتنين

ولا مانع ما بين لاتنين

وأنا واجف فوج الأهرام

جدامى بساتين الشام

فى محبة وأمان وسلام

بتجوللى مرحى يا زين

ولا مانع ما بين لاتنين

ولا حاجز ما بين لاتنين

وفى هذه الأغنية الفريدة، خط يربط بين الأهرام والشام فى بيت واحد، كما يجمع فى هذه الأغنية اللهجة المصرية، واللهجة الشامية، وتعبيراً عن الوحدة بين العرب فى عمق وبساطة، إلى جانب الإيقاع الشعبى الذى يمتزج بالموسيقى الشعبية المصرية، ورقصه الدبكة الشامية.

لعب بيرم التونسى، دوراً بارزاً فى الأغنية السينمائية، فقد اعتمد فى أغانيه للسينما، على دراما الموقف، واللقطة السريعة، والإيجاز الشديد، وهو

واحد من الذين صنعوا الأغنية القصيرة فى هذا المجال، وأسهم بنشاط كبير فى مجموعة ضخمة من الأفلام، مع أم كلثوم، وفريد الأطرش، ملك، نادرة، عبدالوهاب، محمد فوزى، محمد الكحلاوى، ليلى مراد، سعاد محمد، نور الهدى، عبدالعزيز محمود، وكارم محمود وغيرهم.

كما كان يجيد اللهجات المختلفة، البدوية والمغربية والتونسية والشامية، مما ساعد فى تصوير البيئات العربية: بدقة متناهية فى الأفلام.

وفى «فيلم سلامة» لسيدة الغناء العربى أم كلثوم، يقدم بيرم هذه الأغنية «الفوازير» مع مجموعة من الأغانى المتميزة، فى هذا الفيلم.

جولى ولا تخبيش يا زين ... إيش تجول العين للعين
لما العين تشوف حبيب ... تجوله ولا تخشاش رجيب
بعيد وصالك ولا جريب ... ويوم الوعده نشوفك فين

* * *

جولى ولا تخشاش ملام ... حلال الجبله ولا حرام
الجبله إن كانت من ملهوف ... اللي على ورد الخد يطوف
ياخدها بدال الواحده ألوف ... ولا يسمع للناس ملام

* * *

حوار بين المجموعة والمطربة، باللهجة البدوية، حسب أحداث الفيلم، يعبر بصدق عن سهرة من سهرات البدو، فى الصحراء وهم يتسامرون، ورغم ذلك، تحمل الأغنية من المعانى الكثيره، عن التقاليد والعادات لصحراء البدو، فى هذا العصر.

قالب من القوالب الغنائية، ودعوة للتأمل، فى قدرة وإبداع بيرم، تجد فيها

السلاسة والإقناع.

ومن «فيلم فاطمة» لأم كلثوم ومن ألحان زكريا أحمد أيضاً، نرى كيف يتغزل بيرم فى الزهور.

الورد جميل وله أوراق عليها دليل من الأشواق

إذا أهداه حبيب لحبيب يكون معناه وصاله قريب

شوف الزهور واتعلم

بين الحبايب تتكلم

شوف.. شوف شوف واتعلم

يرسم بيرم صورة للغة الزهور، عندما يميل النرجس شمالا ويمينا، ويعطر الفل البساتين، ويسبح فى الخيال مع الياسمين، الذى يزين صدور الغيد، رقة وعذوبة فى قالب شعرى جميل، والأغنية لوحة من حديقة الحياة.

ومع أغانى الأفلام، يلتقى الموسيقار محمد عبدالوهاب، مع بيرم فى أغنيتين «ياللى زرعتوا البرتقال» شدت بها المطربة رئيسة عفيفى «ومحلاها عيشة الفلاح» غناها عبدالوهاب وهنا يصور الفلاح ويقول:

محلاها عيشة الفلاح مطامن جلبه مرتاح

يتمرغ على أرض براح والخيمة الزرجه ستراه

ياه.. ياه.. ياه.. ياه

الشكوى عمره ما جالهاش أن لاجى والا مالجاش

والدنيا بجرش ما تساوش طول ما هو اللي يحبه حداه

ياه.. ياه.. ياه.. ياه

يا ريف أعيانك جهلوك وعزالهم شالوه وهجروك
لمداين مزروعه بشوك ياما بكره يجولوا يا ندماه
ياه.. يه.. ياه.. ياه

يتعامل بيرم فى هذه الأغنية، مع المحصول اللفظى لأهالى الريف، فنجد اللفظة فى موضعها الخيمه الزرجه، زعبوط، جرش ما لجاش، إلى جانب نقده اللاذع للأغنياء، الذين هجروا الريف إلى المدن المزروعة بالأشواك، وقد تحقق ما أحس به بيرم، فتضاءلت رقعة الأرض المزروعة الآن، وذلك بسبب ما أشار إليه بيرم، فهجرة أبناء الريف إلى المدن، أصبحت قضية تستحق الاهتمام.

وعندما يتعرض بيرم لأغنيات المناسبات، التى كتبها للسينما، نجدها كثيرة جداً، وكيفما اتفق نختار هذه الأغنية من «فيلم لحن الخلود» من ألحان وغناء الموسيقار فريد الأطرش، يغنى فيها عن عيد ميلاد بطلة الفيلم:

يا مالكه القلب في إيدك دا عيد الدنيا يوم عيدك

* * *

عيونك في الهوى غنوه وخدك للأمانى كاس
شافوكى في المهج نشوه وقالوا ربنا يزيدك
وعودك لحن يا حلوه سحرتي به قلوب الناس
يا مالكه القلب في إيدك دا عيد الدنيا يوم عيدك

* * *

جمالك سر إلهامى وحسنك وحي أنغامى
ولما تزيد بي آلامى أواسيها بتغريدك
يا مالكه القلب في إيدك دا عيد الدنيا يوم عيدك

إلى أن يقول:

يا فـايقـه الورد فى عـبـيـره أتـارى الـورد غـــــار منـك

وما زالت هذه الأغنية، تتردد كثيراً حتى الآن، لما فيها من صدق، ودقة التعبير، والوصف والعاطفة.

والبيت الأول فى الأغنية يقول:

يا مـــالـكه القـلـب فـى إيدك دا عـيـد الدنيـا يوم عـيـدك

وكما قلنا من قبل، أنها قدرة بيرم على براعة الاستهلال، كما أن الصور التى رصع بها بيرم الأغنية «عيونك فى الهوى غنوه» «شافوكى فى المهج نشوه» ولفظ «المهج» يدل على تمكن بيرم، من إدخال بعض الجمل بالفصحى، إلى نسيج العامية، فتعطيها ثراء وجمالاً.

وبيرم التونسى واضحاً هو الذى أعطى المذاق والتميز للأغنية الشعبية، حتى فى السينما نجد ذلك واضحاً فى مجموعة الأغانى، التى كتبها للفنان الشعبى محمد الكحلاوى، فى أفلامه المتعددة، ومن هذه الأغانى، يا دمعتى زيدى هيا هيا، ما تخبيش عليا، يا صحرا المهندس جاى، فضلك يا سايج المطر، عنتر يا حاميها.

والنماذج كثيرة ومتعدده بالضرورة، لابد أن نتوقف، حتى ننتقل إلى فرع آخر من إبداعات بيرم فى فن الأغنية.

ولكى نؤكد براعة بيرم، نقدم جزئية من «أوبريت غُنَا العرب» من «فيلم أحكام العرب» تلحين وغناء الفنان الشعبى محمد الكحلاوى، كما غنى هذا الأوبريت ملحن آخر الموسيقار فريد الأطرش:

المجموعة:

غنا العرب كله طرب　　من طبعنا ومن قلبنا

ولا من عزف ولا من ضرب　　أحسن مفيش من دا الغنا

البطلة:

غنيت لك يا هاجرى　　حتى جبرت بخاطرى

لا تبتعد عن ناظرى　　ونت معاك روحى أنا

البطل:

لا تعتبي ع اللى هجر　　وخبريني يا بدر

هدا غنا ولا سحر　　أنا دخيل الله أنا

وفى هذا الأوبريت «غنا العرب» أى فى أوبريت «بساط الريح» من «فيلم آخر كدبة» ومن ألحان الموسيقار فريد الأطرش، يقدم بيرم دليل ثقافته الواسعة، فى لهجات الشعوب العربية، فنجد اللهجة السعودية والعراقية والمغربية والسورية واللبنانية والتونسية والمصرية.

والحقيقة أن هذه الصور السينمائية، إذا سميناها تجاوزا أوبريتات أو اسكتشات، تستحق أن تكون لها دراسة خاصة، لأنها جديرة بذلك.

وفى بستان بيرم الغنائى، نتوقف قليلاً أمام هذا الفرع الأخضر، وهو الأغنية الوصفية، نبدأها بأغنية «البنفسج» من ألحان الموسيقار رياض السنباطى وغناء المطرب الكبير صالح عبدالحى:

ليه يا بنفسج بتبهج　　وانت زهر حزين

بالعين تتابعك وطبعك　　محتشم ورزين

ملمـــوم وزاهى يا ســـاهى لـم تـبـــــــوح لـلـعـين
بـكـلـمـــــه منك كـــأنك ســـــــــر بـين اتـنـين
حـــسنك ف كـــونك بلونك تـأنـس المـهـــــجـــــور

إلى أن يقول:

حطوك خـمـيـله جـمـيله فـــوق صـــدور الغـيـــد
تـســـمع وتســـرق يا أزرق همـــســـة التـنـهـيـــد

لـيـــــه يـا بـنـفـــسج بـتـــبـــهج
وانـــت زهـــر حـــــــــــزيـــن

الأغنية من إيقاع «بحر البسيط» الموال، تذكرنا بمشغولات خان الخليلى، بما فيها من دقة الصناعة، فهو أى بيرم، يقسم البحر إلى شطرتين فى البيت، فنجده يقول: (ليه يا بنفسج بتبهج) وهى تساوى نصف تفعيلة الموال أو «بحر البسيط»، وفى الشطر الأخير فى البيت (وانت زهر حزين) وبذلك تستكمل تفعيلة البحر مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن.

والجديد فى هذه الأغنية، القوافى الداخلية فى كل بيت (ليه يا بنفسج بتبهج) (العين تتابعه وطبعك) (ملوم وزاهى يا ساهى) (بكلمة منك). (كأنك) (حسنك ف كونك بلونك)، (حطوك خميله جميله) (تسمع وتسرق يا أزرق) قوافٍ داخلية كالنقش والزخرفة، التى نقف أمامها مبهورين.

ولا شك، أن هذه الأغنية، فى التعبير، والمعنى، والدقة، مدرسة لصناع الأغانى، حقّاً إنها من أروع ما نظم بيرم.

وفى الوصف أيضاً، وما أكثر هذه النوعية، فى ديوان بيرم الغنائى، نستعرض هذه الأغنية «شمس الأصيل» التى غنتها كوكب الشرق أم كلثوم

ولحنها الموسيقار رياض السنباطى:

شـــمس الأصـــيل دهبت　　خـــوص النخـــيل يا نـيل
تحـــفـــه ومـــتـــصـــورة　　في صـفـحـتك يا جـمـيل
والـنـاي عـلـى الـشـط غـنـى　　والـقـــدود بـتـــمـــيل
عـلـى هبـــوب الـهـــوى　　لمـــا يمـــر عـلـــيـــل

إلى أن يقول:

مطرح مـــا يرسى الـهـــوى ترسى مـــراســـينا
والـلـيـل إذا طـال وزاد تـقـــصـــر لـيـــالـينا
والـلـى ضـنـاه الـهـــوى بـاكـى ولـيـلـه طـويـل

وهذه الأغنية أيضاً، من إيقاع بـ «بحر البسيط»، ينقلك بيرم إلى أحضان مصر، شموخ النخيل والشمس حين ترسل الضوء، فوق خوص النخيل، فيتحول إلى ذهب، النيل، الناى، الذى يبعث النشوة، النسمة، حين تمر بسحرها، لليل العشاق.

ولم تخلُ هذه الأغنية، من المفردات المرتفعة المستوى، التى عودنا بيرم عليها، وحين تسمع هذه الأغنية، وأنت بعيد عن القاهرة، تحس بمدى الحنين إلى النيل والنخيل والشمس وإلى مصر، التحفة، التى دائماً نتصورها فى الحقيقة والخيال.

ومن الأغانى الوصفية، لبيرم صاحب الرصيد الكبير، فى مجال الأغنية، نعرض هذه الأغنية «يا صباح الخير» تلحين زكريا أحمد الشريك بالموسيقى فى معظم أغانى بيرم وغناء أم كلثوم:

يا صباح الخير ياللي معانا الكروان غَنَّى وصحانا
والشمس أهي طالعه وضحاها والطير أهي سارحه في سماها
يا لله معاها

يا هناه اللي يفوق من نومه قاصد ربه وناسى همومه
يفرح قلبه يسعد يومه فرحه طول عمره ما ينساها
يا لله معاها

الصبح آهو نور واتبسم والدنيا ضحك لي مُحَيَّاها
ونسيم الأزهار اتنسم على أهل الدنيا وحياها
فى البدريه ساعه هنيه
يسعدنا جمالها وبهاها
يا لله معاها

وصف دقيق لفترة الصباح، ودعوة للتأمل والسعى للرزق، وكثير منا تمر عليه فترة الصباح، ولا يشعر بهذا الجمال الذى ينعش الروح ويصفى الوجدان، الشمس وهى تبعث الدفء والنور، والطير وهو سارح على الرزق، ابتسامة الحياة ليوم مشرق جديد، لوحة من صنع المبدع سبحانه وتعالى نراها يوميّاً، ولكن معظمنا لا يشعر بها، ولكن بيرم يدعونا للتأمل فى ملك الله الواسع.

وبخطى سريعة، نعود إلى خط آخر، من رموز الأغانى المتعددة، فى صفحات بيرم، ونقلب الصفحات، وبيرم الذى حفظ القرآن، والذى يقول عن نفسه:

«تعلمت فن الإنشاد والمدائح، من أفواه المداحين، الذين كانوا يتواجدون دائماً فى الساحة، أمام مسجد سيدى (أبو العباس) وحفظت معظم الملاحم الدينية».

نلتقط بعض الأغانى الدينية، من مؤلفات بيرم، كنموذج لهذه النوعية.

ونبدأ بـ «القلب يعشق كل جميل» من ألحان رياض السنباطى وغناء أم كلثوم:

القلب يعشق كل جميل ... ويا ما شفت جمال يا عين

واللى صدق في الحب قليل ... وإن دام يدوم يوم والا يومين

* * *

واللى هويته اليوم ... دايم وصاله دوم

لا يعاتب اللى يتوب ... ولا ف طبعه اللوم

واحد ما فيش غيره ... ملا الوجود نوره

ثم فى المقطع الثانى يقول:

مكه وفيها جبال النور ... طَالَّه على البيت المعمور

ثم يقول:

فوقنا حمام الحِمَا ... عدد نجوم السما

طاير علينا يلوف ... ألوف تتابع ألوف

طاير يهنى الضيوف ... بالعفو والمرحمهْ

إلى نهاية الأغنية التى يسجل فيها بيرم مشاعره، عند دخوله مكة، والطواف بالحرم الشريف والتلبية، وحمام الحمى، وهو يطوف فى السما فوق الحجاج، ثم يصف الجبال التى يشع منها النور، وهى تطل على البيت المعمور.

حقا لا يتمالك الإنسان نفسه، حين يستمع إلى هذه الأغنية، إلا أن يشتد به الشوق والحنين، إلى زيارة بيت الله الحرام.

ومن الأغانى الدينية، ومن ألحان وغناء الفنان الشعبى محمد الكحلاوى، نقدم هذه الأغنية البدوية «فضلك يا سايج المطر»:

تُشكر يا سايج المطر تُحمد يا سايج المطر
خيرك يا سايج المطر

تشكر يا رافع السما تروي العطشان م الظما
خليت الحب والشجر تخرج م الرمل والحجر
فضلك يا سايج المطر حمدك يا سايج المطر
يا صاحب الجود والكرم أحييت الأرض م العدم
شكرك يا سايج المطر

فى هذه الأغنية البدوية، يقدم بالكلمات، لوحة من البيئة، فى صورة دعاء وشكر للمولى عز وجل، حين ينزل المطر على الأرض فى الصحراء، فتخضر وتزدهر، ونقطة الماء فى الصحراء، لها قيمة كبيرة، وكثيراً عندما يتأخر المطر، يصلى أهل البدو، صلاة الاستسقاء، ويدعون الله، أن ينزل الغيث من السماء.

وهكذا يقدم بيرم، ومضة حية، من البيئة اليدوية، فى الإطار الشعبى، وباللهجة وبالمحصول اللفظى، الذى تميز به بيرم.

وأيضاً، من الأغانى البدوية الدينية، تشدو نور الهدى بهذه الأغنية «يارب سبح بحمدك»:

يارب سبح بحمدك كل شيء حي لما تجلّيت وأجريت الهوا والمى
خلجت فيها نعم منها الشبع والري يسعى بها الجوم في ظل الشجر والفي

امتزاج من اللهجة البدوية، والعربية الفصحى، ودعوة بأن يطرح الإنسان

همومه، يؤكد بيرم ذلك، فى الجزء الأحير من الأغنية:

دنيـاك يا مـبـتـئس مـجـعـولـه للأفـراح

اطرح حـمـول الهـمـوم واجـعـد هنا مـرتاح

وإذا أصـــابك ضنا ولا ابتليت بجـــراح

ياما تمر الهـمـوم مـر السـحـاب يا خى

أيضاً لا تخلو الأغنية من قاموس بيرم، الشبع، الفىء، الرى، مبتئس، وهكذا عودنا بيرم.

يقول الموسيقار الكبير زكريا أحمد «إن أغانى بيرم ليست فى روعة كلماتها فقط، ولكنها قوية الإيقاع فى موسيقاها الشعرية، التى لها علىَّ سلطان شديد، يجعلنى أتعامل معها بانسجام وترشدنى إلى النغمة التى أبحث عنها».

ومع بيرم، والأغانى النقدية المرحة «المونولوج»، نقدم هذه الاستغاثة مع أهل «المغنا» لحن وغناء زكريا أحمد:

يا أهل المغنا دماغنا وجعنا دقيقه سكوت لله

دا احنا شبعنا كلام ماله معنى ياليل ويا عين ويا آه

* * *

طلعت موضه غصون وبلابل شاكى فيها حزين

شاكى وباكى وقال مش عارف يشكى ويبكى لمين

واللى جابت الكافيه ضارشه ما هش سامعاه

يا أهل المغنا دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

ويختتم المونولوج ويقول:

حافضين عشرة اتناشر كلمة نقل من الجرنال

شوق وحنين وأمل وأماني وصد وتيه ودلال

واللى اتعاد يتزاد يا اخوانا ليل ونهار هواه

يا أهل المغنا دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

ومن نفس الإيقاع الشعرى، والنقد الساخر نلتقى مع مونولوج «حاتجن» من ألحان زكريا أحمد:

حاتجن ياريت يا اخوانا ما رحتش لندن ولا باريز

دى بلاد تمدين ونضافه وذوق ولطافه وحاجه تغيظ

ملاقتيش جدع متعافى وحافى وماشى يقشر خص

ولا شحط مشمرخ أفندى معاه عود خلفه ونازل مص

ولا لب أسمر وسودانى ونازل هات هات يا تأزيز

* * *

صور من الشارع المصرى، يقدمها بيرم، فى قالب من النقد الساخر، تدور حول عادات وتقاليد متخلفة، لابد أن نبتعد عنها.

وبيرم يغوص فى قاع المجتمع، ليصحح الأخطاء العائمة والتجاوزات فى مجتمعنا، ويقارن بين الخطأ والصواب.

كما أنه له رأى فى الأغانى، فهو بسخريته المعهودة، ينقد مؤلفى الأغانى ويلخص ذلك عندما يقول:

حافظين عشرة أتناشر كلمه نقل من الجرنال

شوق وحنين وأمل وأماني وصد وتيه ودلال

وبيرم فى مونولوج «حاتجن» يقارب بين ما يحدث فى مصر من تقاليد بالية، مزعجة، وبين لندن وباريس.

وعندما نتعرض للإيقاع الشعرى، فى منلوج «المغنا» و«حاتجن» نجد إضافة جديدة إلى أوزان الزجل، وضعها بيرم ليعطى للمنلوج سرعة إيقاع العصر، وتعتبر هذه التجربة، هى الأولى من نوعها، فى موسيقى الزجل.

وإذا فتحنا ملف المنلوجات من مؤلفات بيرم، التى قدمها فى المسرح والسينما والإذاعة والحفلات العامة، لنجوم المونولوح عقيلة راتب، سيد سليمان، إسماعيل يس، محمود شكوكو، حسن فايق، فؤاد شفيق، حسن كامل، ثريا حلمى، حسين المليجى، نجد أننا أمام أعمال ونماذج، تعبر بصدق عن المجتمع المصرى.

ومع شكل آخر من الغناء، نلتقى مع بيرم والملحمة، ومن ملاحمه الشهيرة «ملحمة محمد على» لحنها وغناها الموسيقار رياض السنباطى، وملحمة «الظاهر بيبرس» التى كان يقدمها على حلقات فى الإذاعة المصرية، واستمرت لمدة عام من غناء. المطرب الشعبى السيد فرج، وعند «ملحمة محمد على» نتوقف قليلاً لنتقدم بعض الأبيات من هذه الملحمة:

محمد لما شرفها ... بعينه المنصفه شافها

كنوز مين بس يعرفها ... ويقدر ينتفع بيها

* * *

مزارع جوها صافي ... وطولها وعرضها وافى

وليه يمشي ابنها حافي ... يمد الإيد ويطويها

* * *

وليـــــه القـــــاضي والوالي يجـــبـــهم بابنا العـــالي
وليـــــه مـــــا يكنش طوالي حـــاكـــمـــهـــا من أهاليـــهـــا

* * *

يا أبـو إبـراهيم ســـــاعـــــدنا وهـــات إيـــدك عـــلـــى إيـــدنـــا
نخلص مـــصـــــر يا ســـدنا من الركش اللى مـــاليـــهـــا

* * *

ورغم أن هذه الملحمة، كتبها بيرم بتكليف من القصر الملكى فى هذا الوقت، فإنها لا تخلو من النقد والسخرية، نجد ذلك عندما يقول:

وليـــــه يمشي ابنهـــا حـــافى يمـد الإيـد ويـطـويـهـــــــا

أيضاً يؤكد بيرم على حقوق المصريين، فى حكم بلادهم ويقول:

وليـــــــه القـــــــاضى والوالى
يجـــيـــبـــهم بابنا العـــالى
وليـــــــه مـــــا يكنش طوالى
حـــاكـــمـــهـــا من أهاليـــهـــا

«والباب العالى» هو السيطرة التركية على مصر فى هذه الفترة.

رغم النفى والتشرد، فبيرم هو بيرم، فى نقده وسخريته، وتمسكه بالحق.

وكما قلنا فى البداية، أن لبيرم رأيا آخر فى الأغانى العاطفية.

يقول بيرم:

أنا لا أكتب إلا من الواقع، وأحاول أن تكون كلمات أغنياتى، معبرة عن

الشخصية المصرية، وأخالف الذين يكتبون كلمات ساحرة فى أغانيهم، ولكن ليست لها معنى، فأنا أكتب للشعب، ولا أكتب عن «وجدان ضمير الحياة».

ومن روائع بيرم العاطفية لأم كلثوم نقدم:

الأولة فى الغرام

الأوله فى الغرام والحب شبكونى

والتانيه بالامتثال والصبر أمرونى

والتالته من غير ميعاد راحوا وفاتونى

الأوله فى الغرام والحب شبكونى ـ بنظرة عين

والتانيه بالامتثال والصبر أمرونى ـ وأجيبه منين

والتالته من غير ميعاد راحوا وفاتونى ـ قلولى فين

الأوله في الغرام والحب شبكونى	**بنظره عين قادت لهيبى**
والتانية بالامتثال والصبر أمرونى	**واجيبه منين احتار طبيبى**
والتالته من غير ميعاد راحوا وفاتونى	**قولولي فين سافر حبيبى**

نموذج غريب فى كتابة الأغنية، وبتكار عجيب، فى أن يخضع بيرم الفورم الزجلى، فى صورة أغنية عاطفية، تفيض بالأحاسيس والمشاعر، إلى جانب موسيقى الشعر، التى بدأها بالموال، ثم أضاف فى المقطع الأول جملة «بنظرة عين، أجيبه منين، قولولى فين».

ثم فى المقطع الثانى، «قادت لهيبى، احتار طبيبى، سافر حبيبى»، تشابك فى موسيقى الشعر، يدل على آفاق واسعة ودراسة فى أصول على النغم.

ومع أم كلثوم ورياض السنباطى يقول بيرم فى الحب:

الحب كـــــده وصـــال ودلال ورضـا وخـصـام
وأهـومـنـده وده الحب كـــــده مش عـايزه كـلام

حـــبـــيـــبى لما يوعـــدني تبـات الدنيـا ضـاحكه لي
ولما وصله يسـعـــدنى مـا فكر ف اللي يجـرى لى
ينســـينى الوجـــود كله ولا يـخـطـر عـلـى بـالـى

وفى النهاية يقول:

حـبـيب قلبى يا قلبى عليـه ولو حـتى يخـاصـمنى
ويعـجـبنى خـضـوعى إليـه واسـامـحـه وهو ظالمنى
وبعـد الغـيم مـا يتـبـدد وبعـد الشـوق مـا يتـجـدد
غـلاوته فـوق غـلاوته تزيد ووصله يبـقى عندى عـيـد

الحب كـــــده

صورة فيها قوة الحب، والتسامح، والتلاقى، والبعاد، قصة الحب فى كل العصور، وكما يقول بيرم «الحب كده» والومضات كثيرة، فى شعر بيرم الغنائى تحتاج منا أن نتوقف ونتأمل.

ورغم هذا العرض السريع، الذى قدمناه فى هذه الأيام، التى لن تعود قبل مائة عام أخرى من الزمان، على ميلاد رائد الأدب الشعبى بيرم التونسى.

أقول إن هذا المحتوى، نقطة من بحر بيرم الكبير، الذى قدم لنا نبضات قلبه ومشاعر أكثر من ٦٠٠ أغنية، ومجموعة من الأوبريتات والاسكتشات والمسرحيات والبرامج الغنائية والمنلوجات والملاحم، إلى جانب أغانى الأفلام

والإذاعة والحفلات.

كل هذا الإنتاج الضخم، يتطلب منا وقفة طويلة لنعاود البحث والدراسة فى هذا التراث العظيم.

حقاً إن بيرم موليير الشرق، كما كان يقول عن نفسه.

■ ■ ■

obeikandl.com